طِينة الخَلْق
(سِر الحنّاء)

محمود مفلح البكر*

جذبت الحنّاء بلونها الأحمر القاني اهتمام الناس منذ قديم الأزمان، وصارت مادّة أساسية في الزينة، واحتلت مكانة مهمّة في تقاليد الزواج، حتى أفردت لها ليلة خاصة تُعرَف بـ "ليلة الحنّاء"، كانت وما زالت أهم لَيلة في حياة الإنسانِ رجلًا كان أو امرأة، وأعمقها تأثيرًا في النفوس، وأكثرها دفقًا عاطفيًا، يشمل العروسين ومن حولهما، ومن على صلة بهما.

فما دور الحنّاء في هذه الليلة؟
وما سرّ أهميتها المذخور في الذاكرة الجمعية؟
وما مغزى لونها القاني؟
ولماذا لم يكن العروسان يحنّيان بأيّ لون آخر؟

ليلة الحناء:

بعد إجراءات الزواج، والتحضيرات الكثيرة لاستقبال المدعوين، وتجهيز ما يلزم لتوفير بيئة مريحة للعروسين، كلّ ما فيها جديد، طاهر، زاه، جذّاب، يبهج النفس بما فيه من ألق الألوان في الأثاث والمكان، ويؤجّج المشاعر بفوح الطيوب من أركانه. وبعد تحديد يوم الزفاف، ومرور ثلاث ليالٍ أو أسبوع من الرقص والغناء والتحضير، تأتي أهمّ ليلة في العرس الشعبي، إنّها ليلة الحنّاء التي تسبق يوم الزفاف مباشرة.

يهمّنا من مجريات ليلة الحنّاء هنا، ما يتعلق بتحنية العروسين من ممارسات تقليدية، في العرس الشعبي التقليدي، لا بكلّ ما يجري في هذه الليلة على الرغم من أهميته. ففي هذه الليلة تُخضَب أيدي العروسين بالحنّاء، ويهيئان لاستقبال يوم الزفاف.

كانت العادة أن تحنّى أكف العروسين حتى المعصمين، وأقدامهما حتى الكاحلين، وفي زمن أقدم، كما أكد بعض الرواة، كانوا يحنون اليدين إلى الكوعين، والقدمين إلى الركبتين، وكأنّ العروسين في مجبلة صلصال! لكن تحنية أقدام العريس تراجعت في القرن العشرين، واستمرت تحنية الكفين، ثم تقلصت في الربع الأخير من القرن العشرين، خاصة بين المتعلمين، واكتُفي بتحنية إصبع، الخنصر غالبًا، للمحافظة على رمزية الحنّاء في الزواج. ومن

*باحث وخبير في التراث الشعبي من سوريا

التقاليد المرعيّة أن يُحَنّى العريس في بيت أهله، والعروس في بيت أهلها، فهناك إذن مكانان مختلفان، واحتفالان متباينان، ومشاعر أكثر تباينًا.

ليلة حِنّا العروس:

كل ما يدور في ليلة الحنّاء مغموس في الرمزيّة، مفعم بالإيحاء، ريّان بنسغ متسرب من جذور غائرة في غموض البداءة، فعلى الرغم من الفرح الغامر والرقص والغناء الطروب في بديتها، فهي في جوهرها ليلة متهدجة ذارفة، أقرب ما تكون إلى طقس بكائي نادب، فيّاض بمشاعر الفراق؛ أليست هذه الليلة ليلة الفصل بين مرحلتين من العمر؛ بين حلم الخصب وبين ترم الخصب؟

في هذه الليلة يُطلَق على الفتاة العذراء صفة "الرُوَيدة"، وتُفطَم عن براءة الطفولة ومرح الفتوّة، وتُعزَل عن أترابها لأوّل مرة، وتُستَلُ من حضن أمّها الحنون، لتُهدَى إلى حضن رجل غريب، ربما لا تعرف عنه شيئاً. والأهم من ذلك كله، أنّها ستفقد ختم عذريتها، الذي خَتَمَتْها به القدرةُ الإلهية، ولفّعتها بسر الخلق الإلهي.

والأخطر من هذا أنّ سرّ أنوثتها، وخصوبتها برمتها، أمام اختبار مصيري معلَن النتائج على الملأ، يتغنى به المحبون، أو يشمت المبغضون، أليس في ذلك بما يقذف بفتاة غرّة، في قلب عاصفة من الهواجس والمخاوف، تلفُها وتلف صويحباتها معها؟ وهو ما جعل من حلول ليلة الحنّاء أشبه بقرع طبول لحرب داخل وعاء الجسد، فبهذه الأرواح المستنفرة المتوجّسة الراعشة، تبدأ مراسم حنا العروس، التي يخيم عليها شبح الفراق.

الحنا وتراويد الوداع

يبدأ الطقس بأن يُعَد للعروس كرسي، أو فراش مرتفع، تقعدها النساءُ عليه، وتشكّلُ المُروّداتُ هالةً تحيط بها إحاطة الهالة بالقمر، وأغلبهن فتيات من جيلها، كانت بينهن كحبة في عقد، لعبن معًا أيام الطفولة، ونهَدن معًا، وتَفتّين معًا، وتسايرن معًا إلى البراري، والأسواق، والحقول، وتسامرن معًا، وتشاركن في المرح البوح، ووضعن أسرارهن في جرة واحدة، وها عقدهن ينفرط، وتشتُّ واحدة منهن أمام أعينهن.

ليس في أيديهن إزاء هذه الحال الطارئة العاصفة إلاّ جَرّة الذكريات، يفتحنها بوجل، فتفيض منها مشاعر الفراق، ويبدأ غناء وداعي متهدج يعرف بالتراويد، يُفتَتح عادة بمثل هذه المقطوعات الحزينة، التي تذكّر العروس بأيام الرفقة الحميمة (1):

البارحة يا رُوَيدةْ كنت انا وانت(2)
ويش السبب يا روّيدةْ تَتجوَزْت
البارحةْ يا روّيدةْ كنت بالحارةْ
واسمع حنينك مع العصفور طيّارا(3)
البارحةْ يا روّيدةْ كنت انا وانت
ألفلكْ بحضيني وانتحب وابكي

تستمر التراويد التي تفيض لوعة ساعة وربما أكثر، ولا يتسع المقام هنا لذكرها كلها فهذا موضوع آخر، وأثناء الترويد تُخَضّب كفّا العروس وقدماها، ثم تغادر الفتيات لتنال رفيقتهن قسطًا من النوم، فبانتظارها يوم حافل.

حِنّا العريس

يُحنّى العريس في الوقت ذاته الذي تحنّى فيه العروس، بعد أمسية عامرة بالأغاني والدبكات والرقصات، تشارك فيها حشود الرجال والنساء والأطفال، من أقرباء وأصدقاء وجيران، من القرية أو الحي البدوي، ومن المناطق المجاورة. ومَن غاب عن ليالي التعليلة السابقة يسعى جاهدًا ألّا يغيب عن هذه الليلة.

تُستَهَلُّ هذه الليلة بالرقص والغناء الحماسي، الذي يركّز على بطولة العريس، وفروسيته وجوده، ويشيد بفروسيّة رجال القبيلة، أو القرية، حتى لو لم يركب العريس أو أحد من ذويه فرسًا بعمره، فالمدح هنا فنّي ذو غاية عقيدية، لتأكيد أصالة العريس، وبطولته، وقوة عزوته؛ فإضفاء هذه الأوصاف من أساسيات العرس التقليدي، لرفع مكانة العريس، والأمر يتعلّق بالجماعة أكثر من العريس ذاته. وفي الوقت المناسب ينهي شيخ الشباب هذه المظاهر، ويُقعدون العريس على كرسي، أو فراش مرتفع، يرمز إلى ارتفاع المكانة، ويصطفّ الشباب حوله، كأنّهم قوّة حراسة متأهّبة، وتكون قريبات العريس، قد جهّزن طبقًا من الحنّاء معجونًا مختمرًا، يزيّن غالبًا بالأزهار والعروق الخضر، وبالمناديل الملونة أحيانًا، تفاؤلًا بالخضرة وما ترمز له من خصب، وتندفع بعض المقرّبات من العريس بالرقص به، وسط حلقة الشباب الواقفين.

ويبدأ الشباب بغناء مشحونٍ بالمشاعر الجياشة يُعرَف بالتراويد أيضًا، وهي كثيرة، مازالت تردد حتى اليوم في كثير من أنحاء بلاد الشام، خاصة في المناطق الريفيّة والبدويّة الجنوبيّة والشرقيّة؛ يفتتحونه غالبًا بمثل هذه المقاطع مع تصفيق بطيء الإيقاع، عميق التأثير في النفس:

حَنّيت اديًا ولا حَنّت كَفّاتي
يا ما احلى النومة بحضين البنيّات
حَنّيت ايديّا ولا حَنّيت اصابيعي
يا ما احَلى النومةْ بِحْضين المرابيع(٤)

ولا يتسع المجال لاستعراض هذه التراويد كلّها، والهدف منها شحن معنويات العريس، إذا كان متهيبًا أو مترددًا لسبب ما، وتحريضه على الفعل، واستثارة قدراته الخصبية، وتهيئته للمهمّة الخطيرة المناطة به، وكلّ مجريات هذه الليلة تلمح إلى أنّ نتيجة الزفاف أمر يهمّ أكثرية المحتشدين، بقدر ما هو شأن خاص يهمّ العروسين.

رمزيّة الحنّاء

إذن يحنّى العروسان في الليلة السابقة على ليلة الزفاف، ليكونا يوم العرس متفرّغين لبقية التحضيرات، وقد توسّل الإنسانُ الشعبيّ الوسائلَ المتاحة بين يديه، أملا بأن يكون المولود القادم مباركًا؛ ومن هذه الوسائل الاغتسال تطهُّرًا من ذنوب الماضي، ولبس الجديد الطاهر، والتطيّب بالعطور، والتخضّب بالحناء.

ويتضمّن الحنّاء أمرين: التطهير، والانغماس باللون القاني. فمن الجانب التطهيري، يُخفي الحنّاء ما استعصى على الغسل من آثار العمل في اليدين والقدمين، وتغلفه بمادة طاهرة، طيبة الرائحة، جميلة اللون، مثيرة للمشاعر؛ فلون الحنّاء يشاكل لون الدم، والدم مادّة الحياة السارية في العروق، وبها تُخضَّب الأيدي والأقدام، وهي أهمّ الأعضاء المُستَخدَمة في العمل وصنع الأشياء المتنوّعة.

وهنا لابدّ من تلمُّس الروابط المستورة بين لون الحنّاء، وبين لون دم العذريّة، وبين لون الدم الجاري في العروق، وبين دماء الذبائح التي تراق في مناسبة الزواج، ثمّ البحث في سرّ هذا الترابط، المؤسّس لاستقبال الفعل الخصبي، المرتَقب بعد سويعات، فهي في العادات والمعتقدات الشعبيّة ليست اعتباطيّة الأصل.

السرّ في الجذور

كان العرس الشعبي التقليدي الأصيل، خاصة في الأرياف والبوادي، مفعمًا بممارسات اعتقاديّة كثيرة متنوّعة، تثير التساؤل لمعرفة سرّها الأعمق غورًا، الذي لا يمكن التوصّل إليه في ظواهر التراث الشعبي ذاتها، ولا في تفسيرات الرواة، التي تدور كلها حول ظاهر الأشياء، ولا انتقاص من الرواة في هذا، لأنّ السر مخبوء في أغوار الماضي السحيق، ومرهون بمنجزات الاكتشافات الأثريّة، وبين أيدينا ما يُبنى عليه.

تروي قصةُ الخلق الرافديّة، أنّ الإله "إيا" إله الحكمة والمياه العذبة، الجالس على عرشه في الأعماق، يشيرعلى الإله "مردوخ" أن يذبح أحد الآلهة، ويخلق من دمه الإنسان الأوّل(٥):

"قُتل كنجو، قطعت شرايينُه، سال دمُه،
ومن الدم خُلق الإنسان".

وفي هذا النص ما يؤكّد أنّ فكرة خلق الإنسان من الدم رافديّة عريقة، منذ أكثر من ألفي عام قبل الميلاد، شاعت في العالم القديم شرقًا وغربًا.

ونجد في الأسطورة الكنعانيّة تنويعًا على هذه الفكرة، فالإله "أدون" وهو وجه آخر لشخصية "تموز"، قُتل على يد أحد أعدائه كان تنكّر بصورة خنزير برّي، فتدفّق دمُه نهرًا أحمرَ عرف بنهر أدون، فاصطبغت به أزهار ملأت الأرض، عُرفت بـ "شقائق النعمان"، وما النعمان إلاّ أحد أسماء أدون(6).

وهذه الأسطورة انعكاس لمظاهر الطبيعة في لبنان، فالسيول المتشكلة من الأمطار وذوبان الثلوج، وما تجرف من أتربة، تصبغ النهر بلونها الأحمر، وبتكرُّر المشهد كلّ سنة، تتجدّد ولادة الخضرة-رمز الحياة، وتتفجّر الأرض بالشقائق التي تبدو بلونها القاني كأنها تروّت بالنجيع؛ فمن دماء أدون الطاهرة المجبولة بتراب الأرض وُلدت الحياة وازدهرت، حسب تلك المعتقدات الموغلة في الزمن، التي ظلّت حيّة تتسرب في نسيج المعتقدات الشعبيّة.

وتتجلّى صلة عجينة الحنّاء ولونها القاني بفكرة الخلق، واضحة في أسطورة الإله "بتاح" في الأساطير المصريّة، فقد صُوِّر وهو يشكّل بيضة الكون على دولاب صانع جرار بيديه بقدمه(٧)، فمن هذه العجينة ينشأ البشر ويتناسلون. وصانع الفخّار لا ينجز تشكيل الجرّة إلاّ بعد أن تخوض يداه وقدماه في الصلصال.

العروسان وطينة الخلق

تشكّل صورة "بتاح" تجسيدًا جليًا مباشرًا لفكرة الخلق من الطين في العالم القديم، وهي واحدة من الأفكار العريقة التي استمرّت بالتجدّد في الذاكرة الجمعيّة للشعب، على الرغم من ظهور عقائد لاحقة تبنّاها الناس، وتجلّت في عجينة الحنّاء لا في عجينة غيرها، والسرّ يكمن في حمرة الحنّاء الشبيه بلون النجيع، الناتج عن عجينة تشاكل عجينة الصلصال على يدي صانع الجرار، وقد استوجبت التقاليد ذات العمق العقيدي أن ينغمس العروسان في هذه العجينة المترعة بالرمزيّة، بغمس أيديهما وأقدامهما قبيل اختلائهما الأوّل، والمصيري حقًا.

البعد الاجتماعي

من راقب الأعراس الشعبيّة التقليديّة، يلمس ذلك الاحتضان الجماعي للعرس والعروسين، ويدرك أنّ خلوة العروسين حدث يهم المحتشدين، والأمر هنا ليس اجتماعيًا صرفًا، وما الاجتماعي فيه إلاّ مظهر يغلّف سلوكًا اعتقاديًا، ذا جذور ضاربة في أعماق التفكير الجمعي، ترى لفعل العروسين انعكاسًا خصبيًا عامًا، ينعقد الأمل على اخضراره، وتهيج المخاوف من جدبه.

ولهذا تفعل الجماعة ما في وسعها لإنجاح مهمّة العروسين، عبر سلسلة من الخطوات المتكاملة المتآزرة، ومن أبرز هذه الخطوات:

- الابتهالات المستمرّة منذ بدء أيام العرس، لنيل مرضاة الله، والتوسّل بالتعاويذ والأدعية.
- خلع الماضي عبر خلع الثياب القديمة، بأدرانها وما ارتُكب فيها من خطايا، عن قصد أو دون قصد، ولبس ثياب جديدة طاهرة، زاهية ببهجة الحياة.
- التطهّر الجسدي بالاغتسال، لتنظيف الجسد من الأدران العالقة به.
- التضمُّخ بالزيوت المباركة والطيوب، لما لها من دور تطهيري وإحيائي معًا، ولما تتضمّن من سرّ إلهي، وقد كانت في الحضارات القديمة مادّة أساسيّة في تتويج الملوك، لتهبهم بركة القداسة، وبها كان يُمسَح الأنبياء أنبياءَ، ومنه جاءت كلمة المسيح، أي الممسوح بالزيت والطيوب، فهي جالبة للبركة، وطاردة للشرّ، ومانحة للقداسة.
- عمليّة التخضُّب بالحنّاء، التي ترمز إلى الانغماس في الفعل الخَلْقي، انغماسَ أيدي صانع الفخار ورجليه في الصلصال.

ونذكّر هنا أنّ القدماء في أساطيرهم، كانوا يماهون بين الأرض والأنوثة، وبين ماء الينابيع، المُزن، والأنهار، وماء الذكورة، ومن اتّحاد أنوثة الأرض وذكورة الماء تولد خضرة الحياة وبهجتها، وكان هذا التصور العقيدي وراء فكرة عيد الربيع، الذي من مظاهره المستمرّة "النيروز" في عدّة بلدان، و"الرابع" في جبال الساحل السوري، و"شم النسيم" في مصر.

والخلاصة

بعد هذه التحضيرات، ذات الطابع الطقسي، المذخور في الذاكرة الجمعيّة، يأمل المحيطون بالعريس، أن تتمكّن ذكورتُه من الاتحاد بأنوثة العروس، ليتفجر ينبوع الحياة المبارك، وتنفتح بوابةُ وعاء الخصب، ليودَعَ فيه سرّ طينة الخَلْق، فتتكوّنَ مخلوقًا سويًا، بقدرة الخالق العظيم، (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) المؤمنون: 12.

الهوامش

(1) هذا النص وغيره من النصوص اللاحقة مستقاة من الرواة، وهي متداولة في مناطق واسعة من بلاد الشام، خاصّة المناطق الجنوبية من سورية، كالجولان، وحوران، والشمالية من فلسطين، والغربية من الأردن، وغيرها، وبعضها مذكور في عدد من المراجع بروايات مختلفة.

(2) من عادة اللسان العامّي عدم التقيد بهمزات القطع، وقد أُبقي اللفظ في النصوص الشعبية على حاله، حفظًا لصحة الوزن.

(3) حنين: المقصود أنين وبكاء مسموع. طيار: المقصود ذائع.

(4) المربوع: متوسط الطول، والمرأة مربوعة.

(5) ملاحم وأساطير – ص: 109.

(6) أدونيس أو تموز – ص: 38.

(7) آلهة المصريين – ص: 610 – 611.

المراجع

1 - آلهة المصريين - والاس بدج، ترجمة: محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، د.ت.

2 - أدونيس أو تموز، جيمس فريزر، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط3،1982.

3 - ملاحم وأساطير من الأدب السامي، أنيس فريحة، دار النهار، بيروت، ط2، 1995.